المرأة التائهة

وبصوت تخنقه العبرات مدت يدها قائلة — بكرم الله عليك اكرم علي — وكأني برقة الصوت دعت يدي الى جيبي فاخرجت لها منديلاً واحداً .

. . .

مضى اسبوع قبل ان رأيت امرأة يقودها جندي بضرب مؤلم الى السجن . ودوى الجميع طفلة تبكي . ودموع الطفلة تقول — اريد امي — ارجعوا لي امي — والعدل يقود تلك الام الى الجزاء وان تكن الرحمة فوق العدل .

. . .

وكنا بفكر الاخ باخيه جلست افكر باخي الانسان . جلست اتامل حركات القوم في الذهاب والاياب فوجدت عقلي قاصراً عن ان يجد سراً من اسرار الكون . جلست افكر بالغاية التي تدفع الانسان في طرق مختلفة فوجدت الانسان عبداً للغاية فكبت عليه

وكما يمر النسيم العليل على جبين المريض مرت بسرعة فريدة من امامي . مرت مرور الخيال بنفس مرة فكانت كجاذب اندفع نحوها . نادتها تعالي ايتها المراة فانت وحيدة تائهة في زوايا هذه المدينة مثلي — تعالي ايتها المراة ولا تخجلي اذا كان ما يوجب الخجل . دعوتك لاني رايتك تمثلين شقاء الانسانية وانا قد جلست افكر بهذا الشقاء . مرات رايتك ايتها المراة وكنت ارى الدموع تجول في عينيك وانت كمن يبحث عن شيء ضائع لا اعرفه الا امرأة هائمة على وجهها تجول في الاسواق وتجوب الساحات وادلة الحزن منتشرة على جبينها فبالله قولي لي — من انت ايتها المراة ؟

— من انا — انا لا اعرف الا انك انت اول من وجه الي هذا السؤال . كان يلذ لي حديث امثالك ايها الفتى قبل ان سبرت غور العالم وعرفت ما هو الفتى — فلماذا تؤلمني ولماذا تعيد علي ذكر الماضي ولماذا تريد ان تعرف من انا ؟ انا امراة فقيرة معدمة تائهة لاحد لها من الدنيا كالكثيرات من امثالي . انت عرفتني ثلاث مرات . عرفتني امرأة شريرة بائسة تمد يدها للمستعطي فاعلم ان قساوة البشرية ضربت يدي بعصا الفقر المدقع فمددتها للاستعطاء . عرفتني امرأة مجرمة تقاد للسجن فاعلم ان عدم وجود الرحمة فوق العدل اوصلني الى ذلك واخيراً رايتني امراة تائهة بائسة تبتعد عن الكل والكل يبتعدون عنها فاعلم ان ذلك

نتيجة احتقار الرجل للمرأة . فهل علمت من انا الان ؟

— ابتدأت اعلم ايتها المرأة وقد وجدت في حديثك ضالتي المنشودة . ولا مشاحة انك فريسة من فرائس هذا المجتمع الفاسد . فقولي لي يا اختاه من سبب لك التعاسة ومن مزج نفسك بالحزن . اعيدي عليّ ماضيك ففي حديثك تاريخ البشرية الساقطة . انا لا اريد ان اعرف المعلول دون ان ابحث عن العلة . لا اريد ان اسمع حديث المرأة الحزين دون ان ينفطر لها فؤادي فقولي ايتها المرأة من انت ؟

— قلت لك اني امرأة تائهة لا اعرف عن نفسي الا الموت والهلاك . من وسط الطبيعة اتيت لابيع هذه النفس في اسواق العار والفساد . هل شاهدت نقطة ندى تتساقط من اعالي الفضاء . تلك النقطة هل تأملت جمالها اللامع ورونقها الفضي قبل ان تمتزج بالتراب وتختلط بالماء الركد المكدر . هكذا كنت ايها الفتى — فتاة صغيرة طاهرة كنقطة الندى اجهل الحياة والعالم ولم اعرفهما حتى عرفت الموت الادبي . هكذا كنت قبل ان دست نفسي في وسط هذا المجتمع الفاسد . ولكن لا ليتني كنت الواضعة نفسي اذ كنت انتقم من هذه النفس ان بي ساقطاً قادني بعقلي القاصر فبعته . دنس فاسد فتح باب الموت امامي فولجته . لذلك تراني اتألم من الدناءة والمجون الفتيان . اسمع يا اخي . لم اشعر الا وقد فقدت جمال الحياة ووقعت في الشرك فضاقت نفسي عن احتماله فتوسعت به علني اريح هذه النفس ولم يكن هذا الاتساع الا ليزيد عذابي — عذاب يجعلني استغفر الله للقوم تسلط عليهم عذاب الضمير

انة ولوعة تلزمني حرفتي ان امزجها بالضحك والسرور . وكسوف وجه وكره معاش تطلب مني حياتي ابداءها بالابتسام والجمال . نفس كبرتها الطبيعة لم تشعر الا وشهوات العالم ومطامعه تغلبها بطوق من رصاص . وهكذا عشت يا اخي — اتمنى الموت واتظاهر بطيب الحياة ورفاهة العيش . وهل تطول حياة المرأة الساقطة وهي تسير الى الظلمة بخطى واسعة .

كل دقيقة من حياتي كانت تتهددني بزوال جمالي . حتى اذا جاء لهذا الجمال ان يزول ولى عني آخذاً معه مورد رزقي ومتجر حياتي . الابنة الجميلة التي قوبلت بالاكرام عند ولوجها باب الفساد تطرد الان لان جمالها قد انقضى ويريق عينيها قد زال . خرجت ووراءي ابنة صغيرة طلبوا ان اسلمها ففضلت الابتعاد على تسليم ابنتي طفلة راوا في عينيها نوراً وفي وجنتيها ناراً فساموها بثمن غال فقلت ان كنت قد افسدت نفسي فلماذا لا اصلح

نفس هذه الطفلة . طلبت عملاً فلم اجد اذ حيثما ادرت وجهي كانت الاصابع تشير اليّ . دخلت بيتاً كخادمة حتى اذا زارني من كان يتودد اليّ ايام جمالي قال — اليست هذه فلانة طردت وهمت عَلَى وجهي في الطرق والازقة ولم اجد من يسعفني . كنت اتلاقى بعشرات الفتيان الذين كانوا يترامون عَلَى تقبيل يدي فلم اجد منهم من يعطف عليّ بنظرة . جلست في زوايا الشوارع وقد اضطجعت طفلتي عَلَى ركبتي فعدت بفكري الماضي وتذكرت اياماً كنت بها صغيرة اضطجع في حضن امي . فكنت ابكي ولا اعلم ماذا افعل لم يخدمني احد ولم يشأ انسان ان يتدنس لاعمل له عملاً . حاولت ان ارجع لارض حملتني صغيرة فخشيت لاني احمل في قلبي موتاً وعلى يدي طفلة اخذت امتعطي فلم اجد من يحن علي سواك انت احسنت اليّ مرة واحدة وكنت الرجل الوحيد الذي احسن اليّ

وكان الجوع يدفع الطفلة الى البكاء فالخرج هائمة عَلَى وجهي واعود فارغة اليدين وتبقى معدة الطفلة فارغة ودفعني حنو الامهات يوماً فتناولت رغيفاً من العيش لاقيت به الطفلة فقامت قيامة الرجل في وجهي وقالوا سارقة وانت رابتني بعينك القاد للسجن حيث قضيت اسبوعاً كاملاً حتى اذا خرجت وجدت طفلتي بين الموت والحياة رأيتها تريد ان تسبق امها الى القبر اخرجت نفسها الاخير وهي تبكي من الجوع اطعمتها فوّادي فلم يشبعها وسقيتها دموعي فلم تروها فسلمتها للموت وقلت لها سيري يا طفلتي من هذا العالم فخير لك ان تهلكي قبل ان تعرفي ظلم الانسان وهكذا اسلمت روحها تلك الطفلة

الرجل كان ولا يزال سيب تعاستي وذلي وانت تريد ان اعيد عليك الماضي دون ان تشفق عليّ انت احسنت الي مرة فلماذا تسيء اليّ الان اتركني ايها الفتى فانك صغير لا تدري بعد ما العالم فرويداً عليك الى ان تكتسب فظائع اخيك الرجل

— لا يا اختي اذا كان قد اساء اليك اخوك الانسان فلا تسيئي اليه لانه وان كنت فتى صغيراً ايتها المرأة فلديّ دموع اسكبها حزناً عَلَى النساء انا احزن عليك يا اختاه اكثر مما تحزنين عَلَى نفسك . فكفكفي البكاء واعلمي ان جميع ذنوبك تتساقط من عينيك بهيئة الدموع ولا تظني كوني رجلاً عدواً لك لان الذي يرث القوة من الرجل يمكنه ان يرث اللطافة والدعة من المرأة :

— ولكن يا اخي اخشى ان القوة تتقوى عَلَى اللطافة والدعة انت اذا تكلمت فعن عقل وفكر : اما انا فاني اخجل تجاربي سنوات عديدة عَلَى ظهري : انا اتكلم من اختبار ودرس حياة عرفته اكثر من سواي : ان المرأة افضل عطية من الله للرجل : وهذا الرجل يقود

البشرية بجملتها الى الهلاك : واذا بقي على ما هو عليه فسترى كيف تكون نهاية هذا التمدن الحديث : ان الرجل قاسٍ ظالم يميت كل عاطفة شريفة في قلبه و يدوس الشهامة برجله بعد ان يطلق لنفسه عنان الشهوات لتسير حسبما يهوى ولا يهمه مهما ضحى في سبيل نفسه نفوساً : العشرات والمئات من الفتيات المسكينات من قادهن الى أماكن العار اليس الحائك الفتى : من ابن يعيش هؤلاء ومن ينفق على بذخهن واسرافهن اليس الرجل بينما الملايين من ذوي النفوس الحية يتألمون جوعاً :

اليست حياة الشاب في هذا العصر عبارة عن مظاهرات خارجية لا معنى لها انت تجيب سلباً لانك لا تدري فتعال معي أيها الفتى لاريك حياة الشاب : هي تمثيل رياء وكذب وهزء : اليست مواعيد الشبان مجرى مثل او لست انا ضحية احدى تلك الوعود : انظر الى ذلك الشيخ المغرم فقد كان يقضي لياليه لابتسامة من شفتي وقد استعطيته امس فهز عكازه بوجهي وذلك الفتى ايضاً فكم قبل يدي وربما لا يزال يحمل تذكاري حتى اليوم : وفي قلب كل هؤلاء لم اجد رحمة :

— نعم يا اختي انا اسير معك في كل ما تقولين وحياة الشاب في هذا العصر عبارة عن مظاهرات خارجية تؤيدها العواطف و يحتقرها العقل : العواطف لان الانسان يقودها والعقل لانه يقود الانسان : ان مكروب هذا المجتمع شبانه ولكن لماذا لا تجتنب الفتاة هذا المكروب بدلاً من ان تتعرض له

نحن نرثي لحالة المرأة و يؤسفنا ونتألم من الرجل متى شاهدنا امرأة ضعيفة تتعذب : حتى اذا بحثنا عن تعاستها نجد استسلامها سبب شقائها ايمكننا ان نحكم على الرجل ونبرر المرأة: الرجل اخطأ والمرأة شريكته في الذنب : لماذا لا تتصلن من هذه الشركة قبل ان ترفعن دعواكن على الرجل لماذا تظلمن انفسكن وتقودنها الى العار والموت ثم تعدن باحتجاجكن على الرجل وفي كل يوم تعلن لكن ان الرجل قاسٍ ظالم وانتن تزددن ضعفاً على ضعف

صدقت يا اخي — المرأة شريكة الرجل في الذنب ولكن انتم تنسبون القوة للرجل والضعف للمرأة وما عسى يفعله الضعيف ازاء القوي تقولون ان الرجل راس المرأة ورئيسها المطلق فاذا اطاعته فمن العار عليه ان يستبد بها و يتلف لها حياتها الادبية وان كنتم لا تحسنون استعمال هذه السلطة فتنازلوا عنها وساووهن بانفسكم فتجدون بين هؤلاء الضعيفات كثيرات من القويات ان نفس المرأة تثور من ظلم الرجل ولها الحق في ذلك الرجل يسلب اثمن ما لديها و يتركها عرضة لهدفات الزمان ومصائبه صحيح ان العفة ثوب تمزقه الفاقة ولكن

الفاقة هاوية يخشاها الرجل في وجه المرأة

ان مستقبل المرأة قلبها وهو العرش الذي تنظر اليه بل منتهى املها يمكن فشاب فتل وقته وابادِ همومه كما يريد اما المرأة التي تعز بتها الوحيدة قلبها اين تجد التعزية متى كسر ذلك القلب وتحول مجرى افكارها الى حزن

ان قلب المرأة المهجورة كالقلعة التي بعد ان امتلكها العدو تركها قاعاً صفصفاً

نعم يا اخي المرأة لها من العالم قلبها وهو مجموع كل آمالها فاذا فقد ذلك القلب او قضي على هذا الامل فاين تجد رجاءها وفي حيثما ذهبت ترَ الاوجه العابسة تنظر اليها باحتقار احذر يا اخي من احتقار المرأة الساقطة فانت كما قال هيكو — لا تعلم تحت اي حمل سقطت :

اتقوا الله في نسائكم يا قوم فهن خلقن شريكات لكم لا عبدات احبوهن دون ان يكون حبكم مرافقاً لحاجاتهن لان الحبة غرض مقدس من العلي المرأة ليست متاع الرجل بل هي جزء منه ولا يتم كيانه الا بهذا الجزء اتظن ظلم الرجل للمرأة يعود ضرره على المرأة فقط كلا يا اخي العاقبة الوخيمة تنيجتها على الانسانية جمعاء على كل من الرجل والمرأة المرأة تشعر بهذا لانها المظلومة والرجل يتغافى عنه لان المستبد كثيراً ما يود ان لا يرى استبداده هل تظن ان دموع النساء تذهب سدى ان الرجل سيدفع ثمناً فاحشاً بدل هذه الدموع الطبيعة تقتص للمرأة المظلومة تأمل يا اخي في فساد النوع وضعف المواليد وقلتهم اذهب وفتش في بيوت الاغنياء الذين هم اصل شقاء المرأة باسرافهم وبذخهم تجد صبياناً وبناتاً بابدان نحيلة مهزولة مكسية بالقرو والجرابر والاجواخ وكل هذه التنعمات ليست لترد عنهم الاوبئة والامراض المفترش الارض بكوخه ينام ليله براحة بال وهدوء ضمير وهؤلاء لو فحصت تاريخ حياتهم لما وجدت ليلة لم يلعب بهم التسهيد او لم يزرع الارق اوجاعه المختلفة في القلب والمعدة والرئة والكبد ان ضعف النسل وقلة المواليد اعلان باحرف محمرة يقول اتقوا الله في نسائكم يا رجال اذا ذنب هؤلاء البئين انهم ضحية فساد الامهات وجهلهن نتيجة ظلم الرجل هؤلاء جنى عليهم الاباء والجهل اوصل الانسانية الى الطرفين هذا يموت من كثرة التنعم وذاك من الفقر والجوع فاجمعوا بين الطرفين تحسنوا ولا تجعلوا الغنى والفقر وسيلتين لقتل الانسان

من اول تاريخ البشرية حتى اليوم وصوت المرأة يرتفع بالشكوى من الرجل وان شئت ان تعرف العلة فراجع تاريخ الانسانية تجد التي اخرجها الله من جانب قلب الرجل لتعد

بقابه امة تخدمه نساء اليوم يتمدين على طريقة هذا التمدن الحديث كما كانت تذل نساء القرون الاول على اسلوب الهمجية السابقة وما همجية الامس باوحش من تمدن اليوم الممزوج بالرقة واللطف

نساء الماضي تعذبن باجسادهن ونساء الحاضر يتعذبن بانفسهن همجية الامس تعذب الجسد ومدنية اليوم تعذب النفس

المرأة وان تكن امًا للطفل وزوجة للشاب ما برحت عبداً للرجل بل ان نفسها الراضية ما سولت لها ان تطرح هذه العبودية عنها يوماً ما ولكن آن لها ذلك من كثرة فساد النيات وما يحاور عقل الرجل من امراض هذا المجتمع وقد حان لها ان تعرف حقيقة علاقتها بالانسان لبال كثيره عند ما كان بتكاثر عدد المتهتكين في مراتع العار والفساد كنت اجلس اتأمل في كيف ان زوجات هولاء الرجال يصرفن لياليهن ضمن جدران البيت لا يحق لهن الخروج طالما ازواجهن يتنقلن في بيوت الهلاك والموت

خطيئة المرأة مميتة اما خطيئة الرجل فيجب ان تتقاضى عنها الرجل يعفو عن نفسه اما المرأة فمن يعفو عنها يرتبق عينيها يجيبها اليه ودموعها تشفع عنده ومتى انقطع مجرى الدموع وتقلص برتبق العيون انطرح قادة الامس لتمزقها خناز ير اليوم اين اصدقائي اين وعود الشبان ووفائهم الذين كانوا يتهافتون على تقبيل يدي بالامس يضربونها اليوم لانها مدت للاستعطاء الذين كانوا يتمنون خدمة لي لا يقبلوني خادمة لهم انسانة ضعيفة بقرص البرد جسمها وليس لديها ما تقي به ذلك الجسم الجوع يتهددها فتوهى قواها وما من صديق تستند اليه فالى اين تسير هذه الانسانية وما هو الحد الذي تقف عنده بشرها بخراب عاجل اذا كانت تدفع المرأة امامها الى الخراب

سهيلا ايتها المرأة واذا كنت متألمة فلا تكوني اليمة مولمة يسرني ان اراك ذات نفس كبيره مع كل ما قاسيته و يسوءني ان لا تكون تلك النفس مقرونة برقة العاطفة النفس الكبيره يا اختاه اذا جهلت مركزها او تجردت لذاتها تخير منها نفس صغيره يسود عليها العقل والضمير اريد ان لا تنسي التساهل والتسامح اذ ليس في الدنيا امرء بلا عيب وان اردت صديقاً كاملاً فجردي ذاتك عن البشرية وارتفعي عنها علك تجدين من تفقدينه نفسك او فكوني على غير ما انت

كوني منصفة بحكمك على هذا المخلوق الذي تظنينه قوياً ولو عدلت لرأيته شبيهاً لك بالضعف ان حقوقك مهضومة ايتها المرأة وقليلات من النساء من يعرفن كيف يطالبن

بحقوقهن في كل شيء تفسبون تاخركن لضعفكن نحن يا اختي لا يمكننا ان نمنع الطيور عن ان تطير فوق رؤوسنا ولكننا نمنعها عن ان تعشش فيها الافات والشهوات تخامر كل فكر ولا يوجد قوة في العالم تمنعها عن ذلك انما يمكننا منعها عن ان تولد وتثمر في قلوبنا انت تعلمين ان لك حقوقاً هضمها الرجل ولا تعرفين القيام بالواجب لارجاع تلك الحقوق

= كلا يا اختي الحقوق في العالم مربوطة بالواجبات والرجل يطلب الواجب من المرأة بدون ان يدفع لها حقها انا لا اطلب ولا اريد ان نصل الى افراط الغربيين ولا ان نبقى على تفريط الشرقيين بل ان نجد لنا حالة بين هاتين الحالتين ترفع شاننا الاجتماعي . انت تعلم ان تاخر الرجل ناتج عن تاخر المرأة وهذا الرجل لا يمكنه ان يصعد سلم الارتقاء بدون المرأة . ايلذ لك ان تسير الى الامام حتى اذا حانت منك التفاتة الوراء شاهدت من بعيد جنس اخواتك النساء يجررن ذيل الجهل والتاخر ويئنن تحت نير العبودية والذل . الا تفرك عواطفك لهذا المشهد المحزن ويضطرب فؤادك من هذه الحالة . ربما تعبد القول ان المرأة اضعف من الرجل فدعني اجاريك في ذلك ولو خالفت معتقدي وقل لي لماذا لا تقرنون القوة بالضعف وانتم تدرون ان قوتكم هذه اذا لم تقترن بضعفهن فهي الضعف بعينه . هذا اذا جاريت الراي العمومي وكثيراً ما يقع هذا الراي في الغلط اذ من المستحيل ان الطبيعة تخصص القوة باحدهما دون الاخر . انبع المرأة في جهاد الحياة تجدها كالرجل قوة تأمل كيف تحتمل الضنك والسقم في سبيل اطفالها ومن هو المخلوق الوحيد الذي يقوم بخدمة الشيخ العاجز ان تعب ساعة الولادة فقط يوازي كل اتعاب الرجل ويجعل كل الرجال مديونين لكل النساء ولكن الاذان تسد عن سماع انين المرأة

أتريد ان اطالبك في الحقوق المدنية فاسمع يا اخي يقوي شاب شابة ويرتكب الاثنان جرماً فتصدر الانسانية حكمها الصارم على الفتاة وتطردها من المجتمع البشري بعد ان تعلق على جبينها الثاب الذل والعار اما الشاب فتوسع له مجالاً في وسطها الفاسد ليسير على ارتكاب الموبقات ولا من يردعه فقل ايها الفتى لماذا لا يعاملان بالسوية لماذا لا يحرم الزواج على الفتى الدنس كما يحرم على الفتاة بل لماذا لا يكون الزواج اجباريا وتكون هذه نهاية فساد الانسان ولكن قل لي هذا يستحيل لانهُ مخالف لمصلحة الرجل

= لا يا اختاه ان الطبيعة منعت الرجل بهذا الحق

= لا تقل الطبيعة بل قل البشرية القاسية لان الطبيعة تحب ابناءها على السواء فهي قد وضعت في ضمير كل رادعاً يولمه حين يمسك يد الابنة المسكينة ليقودها الى الموت

كفى ايها الفتى وعبثاً تبرر الرجل ظالما البشرية الظالمة التي يجب سحقها تحت قدميه اني العن الارض التي لا تخسف بظلم الرجل

= لا تلعني الارض يا اختاه لانها تحمل بين طبقاتها اجدادك واجدادهم واذا شئت ان تلعني فالعني السفالة التي يجعلها الانسان بفكره

انت يا اختاه تتألمين من البشر والبشر يتألمون من انفسهم فارفعي نفسك الحقيقية فوق نفسك الساقطة واشفقي على تعاسة البشرية بدلاً من ان تطعني قلبها باسهم من نار فهي اولى بالاشفاق منها بالقصاص نعم يا اختي باركي ولا تلعني واذا كان الرجل اشد منك شراً فكوني اشد منه خيراً

ان العالم شرير يا اختي ونحن منهُ نفيرٌ للانسان ان يحتمل الشر من ان يفعله فلا تحزني على ما في العالم لان مجد هذا العالم فانٍ مثله

اني سانشر حديثك ايتها المرأة ليقرأه الرجل فيخجل وتقرأه المرأة فتعتبر

بيروت توفيق مفرج

لمن الفضل

« للسيدة عفيفة كرم (رئيسة تحرير القسم النسائي في جريدة الهدى النيويوركية ومؤلفة روايات بديعة وفؤاد وفاطمة البدوية وغادة عمشيت وملكة ليوم) مقالات عديدة قد اختصت بها الهدى دون غيرها منذ بدأت بالانشاء واكثرها يتعلق بالجنس الحسن فرأينا ان لا نحرم مطالعات الحسناء بعضاً منها فعزمنا على نشر هذا البعض مبتدئين الان بهذه المقالة »

كتب اديب (يريد اخفاء اسمه) عن اوبرن نيويرك يسألني : « لمن الفضل بتربية البنين الى حين بلوغهم سن الرشد الاب ام الام »

لمن الفضل ؟ اهو لغير التي تحملهم في احشائها تسعة اشهر مغذية اياهم من دمها المحول من طعام وترضعهم من لبانها وتضمهم الى صدرها وتلازمهم في كل اطوار الحياة داخل المنزل وخارجه ؟

= أهو لغير التي تداوي امراضهم وتنشف دموعهم وتكتشف قبل الجميع